منطقة البسطة في بيروت أو "جبل النار" بين الأمس واليوم

زهير دبس

ربما يستلزم الكتابة عن منطقة "البسطة" في بيروت، الكثير الكثير، نظرًا لتاريخها الحافل بالأحداث السياسية والعسكرية ولحراكها الثقافي والاجتماعي وازدهارها التجاري على مر عقود، وأيضًا كونها واحدة من أحياء بيروت البكر التي تمدّدت خارج سور المدينة منذرة بنمو الإعمار والازدهار.

عن أصل اسم "البسطة" يبقى الأقرب إلى الحقيقة ما ورد لدى المؤرخ طه الولي، كما ذكره له أحد المعمّرين من أهل بيروت فقال: "إن بعض بائعي الخضر كانوا يتخذون لأنفسهم بسطة في المحل المرتفع، وبعضهم في المحل المنخفض فتعارف هؤلاء وأولئك على إطلاق البسطة الفوقا للمحل المرتفع والبسطة التحتا للمكان المنخفض".

حملت البسطة أيضاً اسم "جبل النار"، نظراً للدور الوطني الذي لعبه عدد كبير من أبنائها، منذ عهد الأتراك مروراً بالانتداب الفرنسي حتى استقلال لبنان، ومن بينهم من أعدمه جمال باشا يوم السادس من أيار العام ١٩١٦، في المكان الذي يحمل اليوم "ساحة الشهداء"، وهم: عبد الغني العريسي، وعمر حمد، ومحمود العجم، والأخوين محمد ومحمود المحمصاني.

قبضايات "جبل النار"

عزز حضور "جبل النار" في الذاكرة وجود عدد كبير من القبضايات فيها، الذين اشتهروا بشجاعتهم وقوتهم البدنية، ولعبوا أدواراً اجتماعية ووطنية، فكان من بينهم الحامي، والجبار، والحكيم والرياضي، وفاعل الخير، ولا زالت مآثرهم حاضرة في أذهان أهل المنطقة التي توارثوها أباً عن جد، وأشهرها حادثة "باولي"، (لبناني من أصل يوناني) الذي قتله قبضايات البسطة بعد أن تمادى في افتعال المشاكل، فرثته والدته بأبيات اتخذت مثلاً يضرب به:

ما قلت لك يا أسطه... شو بدك بولاد البسطة
اللي ما بيقتلك بالسكين
بيقتلك بالبلطة.

من الأبيات التي نظمت في شجاعة قبضايات البسطة أيضاً:

عنتر كان بزمانو
يهز الكون بأركانو
لما بيوصل عالبسطة
يحوّد عن ضهر حصانو

ازدهار لافت ومبكر

تتداخل البسطة عقارياً مع عدد كبير من المناطق في بيروت، من بينها البربير والمزرعة وبشارة الخوري وبرج أبي حيدر وخندق الغميق وحوض الولاية والباشورة. وقد تسنى لهذه المنطقة أن تشهد نشاطاً تجارياً لافتاً في وقت مبكر من القرن العشرين، فكانت سوقاً يتردد إليه المزارعون من مناطق الشياح والغبيري وبرج البراجنة والحدث لبيع منتوجاتهم من الخضار. كما عمل عدد يسير من أهلها في وظائف مختلفة في مرفأ بيروت، وكانوا قابضين على زمام العمل فيه من دون منازع، حتى أنه عهد إلى عدد من عائلاتها بمهن

معينة، فكانت تجارة الخشب لأبي طالب النعماني، وتجارة الجنفيص لأبي خليل القيسي، وإرشاد السفن للبلطجي والستيفادورية للمكاوي واليافاوي وغندور والمصري، كما امتلك عدد من أبنائها شاحنات نقل من وإلى مرفأ بيروت، وشكلوا أسطولاً واكب الازدهار التجاري للمدينة بقي حتى بداية الحرب الأهلية اللبنانية في العام ١٩٧٥.

شارع الأنتيكا في البسطة (الصورة من جريدة المدن)

معامل ومتاجر

تنامى ازدهار المنطقة لاحقاً بفعل وجود ثلاث محطات للتراموي فيها (البسطة - العريس - النويري)، فعرفت الاكتفاء الذاتي لأهلها ولعدد من المناطق المحيطة بها، بعد أن افتتح فيها عدد كبير من المحلات والمتاجر التي تبيع مختلف الحاجيات الغذائية، إضافة إلى عدد من معامل السكاكر والبوظة والمرطبات، ومصانع الملبوسات والأعمال الخشبية والحديدية والزجاجية، والأدوات الكهربائية ومواد البناء، وكاراجات تصليح السيارات، إضافة إلى وجود عدد كبير من المهنيين والخياطين والمزينين والحرفيين. أشهر ما في البسطة اليوم سوق الأنتيكا الذي يقصده هواة هذا النوع من مختلف المناطق اللبنانية.

الحراك الاجتماعي والثقافي والتربوي

كانت البسطة وجهة أهل بيروت الذين قصدوها بعد أن ضاقت بهم المدينة، وانضم اليهم لاحقاً أبناء الأرياف، وشكلوا بمجموعهم خليطاً عززته روابط استندت إلى عقد اجتماعي قوامه التسامح واحترام الجيرة، والمحبة وفعل الخير والإحسان. فيما كان الحراك الثقافي والتربوي رافعة لنهضة يضيق المجال هنا لذكر روادها الذين تبوأ عدد منهم مراكز عليا في مؤسسات الدولة (نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر) رجال دين وقضاة وفقهاء (الشيخ عبد الله العلايلي، الشيخ عبد الرحمن سلام) ومهندسون (أمين البزري، عصام بكداش) وسفراء (صلاح ستيتية) وفنانون تشكيليون (عمر الأنسي، مصطفى فروخ) ومغنون (نجاح سلام) وسياسيون (رياض بك الصح، كاظم بك الصلح، رشيد بك الصلح، شفيق الوزان) وممثلون (حسن علاء الدين (شوشو)،

ومحامون ومذيعون ومخرجون وصحافيون (النقيب محمد بعلبكي) وغيرهم كثر، وليست المدارس المتعددة التي اغتنت فيها البسطة سوى دليل واف على النهضة التربوية والتعليمية التي قامت فيها، ومحورها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية بفروعها المتعددة، ومدارس أخرى لمختلف المراحل التعليمية.

والحال، تلازم الحراك الثقافي والتربوي للبسطة مع وجود عدد وافر من دور النشر والمطابع من بينها دار العلم للملايين، ودار المعارف، ودار لبنان للطباعة والنشر، ومطبعة النقري، إضافة الى عدد من المكتبات من بينها: الأرز، مكة المكرمة، وبدر، وفخر الدين، وروكسي والحميدية وعاصي، ولم يكن تأسيس عدد من الجمعيات الخيرية سوى جزء من مسار هذا الحراك الثقافي والتربوي، إذ وضعت هذه الجمعيات من ضمن أبرز أهدافها محاربة الفساد والرذيلة ومساعدة الفقراء والمرضى ونشر المحبة، ومن أبرزها: جمعية البسطة الفوقا الخيرية، ورابطة شباب بيروت، والاتحاد الوطني للعمل الاجتماعي ورابطة شباب البسطة وغيرها.

المستشفيات

لم ينقص البسطة أي من الخدمات الطبية والصيدلة، وقد توافر فيها عدد من المستشفيات التي كانت تلبي حاجة السكان والمناطق المجاورة من الاستشفاء والطبابة وتوفير الأدوية، من بينها مستشفيات: الطيارة، سنو، رزق التي انتقلت لاحقاً إلى الأشرفية، الاسلامي، خالد، دار الصحة، مروة.

البسطة في البال

يقارن كبار السن ما صارت إليه البسطة اليوم من ازدهار ونمو، ويستذكرون ما كانت عليه قديماً، حيث كان أصحاب الحرف وبائعو الأدوات المنزلية والأقمشة، بمثابة السوق المتنقل الذي يلبي جزءاً كبيراً من حاجيات الأهالي، وكان هؤلاء يتجولون سيراً على الأقدام بين الأحياء باحثين عن رزقهم منادين على بضاعتهم وجودة عملهم، منهم منجد الفرش ومبيّض الطناجر، وباعة الصحون والكبايات والكاز والكعك والمرطبات والكرابيج والتمر هندي والجلاب والسوس.

يبقى صندوق الفرجة أحد أكثر المظاهر الشعبية جذباً للأهالي والأطفال في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه أجهزة التلفزة وصلت إلى البيوت، إذ كان بمثابة سينما متحركة، يضعها صاحبها على ظهره، ويجول بها الأحياء، منادياً بأعلى صوته أبياتاً مقتطعة ومحوّرة من قصيدة الشاعر البيروتي عمر الزعني:

تعا تفرج يا سلام
شوف أحوالك عالتمام
شوف الدني كيف بتمشي
تعا شوف صندوق الفرجي
تعا تفرج يا سلام

من قديم البسطة أيضاً، أن عدداً من أبنائها كانوا أعضاء في أول غرفة تجارة في بيروت، في زمن الحكم العثماني. ورد هذا الخبر في جريدة لسان الحال، في منشور في الجزء ل ٧٤٦٦ الصادر في ١٠ شباط ١٩١٤ على الشكل التالي:

بدعوة من حكومة الولاية اجتمع فريق من تجار الثغر لانتخاب هيئة الغرفة التجارية مؤلفة من ١٢عضواً، وقد أسفر الاجتماع عن فوز السادة: هانم اوغلو مدير البنك العثماني، وسليم دانا مدير بنك سالونيك، وحسن قرنفل، وعمر الداعوق، ونسيم مطر، وميخائيل غبريل، وسعيد العكاوي، ومحمد خير القصار، وعمر البراج، وميخائل طراد، ويوسف الهاني، وعبد الله بيهم.

صورة تراثية عن منطقة البسطة الفوقا و يبدو في الصورة شارع المأمون للرسام البريطانيTom Young

المراجع :

- عمر زين "من ذاكرة بيروت"
- جمعية تراث بيروت
- نافذة على بيروت المحروسة